لقاء مع على الجارم
بمناسبة جمع إنتاجه النثرى وتحريره ونشره
للدكتور مهدى علام

كنت فتى فى السادسة عشرة ، يملؤنى الأمل ويشجعنى على الإقدام توفيق من الله تعالى فى سنوات دراستى الابتدائية والثانوية ، حتى ذلك اليوم الذى تقدمت فيه لامتحان المسابقة فى القبول بدار العلوم (نوفمبر ١٩١٦) . وكان نظام القبول فيها امتحانا تحريريا ، فى فروع اللغة العربية ، والمواد الاجتماعية ، ثم شفويا فى القرآن الكريم ، وألفية ابن مالك حفظا وشرحا ، والقراءة فى كتاب من كتب التراث ، واختبار فى المعلومات العامة ، وعند ظهور نتيجة الامتحان التحريرى ، وفقنى الله تعالى فكنت أول الناجحين ، وتوجهت إلى لجان الامتحان الشفوى على الترتيب السابق . وسعد الفتى العاشق لدار العلوم بحصوله على أعلى الدرجات فى المادتين الأوليين ، وانتقل متهللا إلى اللجنة الثالثة ، وكان عضواها الاستاذين عثمان بك لبيب ، وعلى الجارم . وجلست أمامهما أرد على أسئلتهما (أو بالأحرى على أسئلة الأستاذ الجارم) . ثم ناولنى نسخة من كتاب «أدب الدنيا والدين » للماوردى ، فقرأت منه قدرا يزيد على صفحة لم أخطئ فى كلمة منها . فقالى لى الأستاذ الجارم : هذا كافٍ ، ثم اتجه إلى عثمان بك لبيب ، قائلا له بالإنجليزية : (thirty Seven) ، فقلت له ، فى جرأة الشباب ، والثقة بالنفس : ولماذا تنقصنى ثلاث درجات وأنا لم أخطئ فى أى شئ ؟ (النهاية العظمى ٤٠) فقال : أنت تعرف الإنجليزية يا ولد ! قلت : نعم . قال : فلماذا حضرت لدار العلوم ؟ قلت : لأتعلم العربية . فضحك قائلا : اذهب فهذه

(*) ألقى البحث بالجلسة السادسة من جلسات المؤتمر فى يوم السبت غرة شعبان سنة ١٤١١ سنة الموافق ١٦ من فبراير سنة ١٩٩١ م .

درجة لم يحصل عليها أحد منى قط . كان هذا أول لقاء مع الأستاذ الذى كان يملأ المجتمع المصرى يومئذ بشهرته الأدبية والشعرية .

وبعد أن عرفت أنه الجارم العظيم عدت إلى بيتى ، وأعدت قراءة قصيدته التى كانت منشورة فى عدد قديم من أعداد مجلة (الهلال) وهو طالب بعد ، وكانت ضمن مجموعة من المجلات التى كانت فى بيتنا إبان صبباى ، وكانت عن (الكوليرا) التى انتشرت فى أوائل هذا القرن . كنت أحفظها قبل أن ألتقى بقائلها . ولو كنت أعلم من هو يوم أن جلست أمامه ليمتحننى ، لأبلغته إعجابى (إعجاب فتى شاعر) بقوله فى تلك القصيدة ، مشيرا إلى تشبيه الأطباء لمكروب (الكوليرا) بحرف (الواو) :

لست كالواو ، أنت كالمنجل الحصاد
إن أحسنوا لك التمثيلا
كم فتاة طرقتها ليلة العرس
(م) وقبل الحليل كنت الحليلا
يا أخا الاحتلال ، آذيت بالنفس
(م) وبالمال فالرحيل الرحيلا !

وبقيت الفترة المتبقية على بدء الدراسة (كان نظام «دنلوب» المستشار الإنجليزى يقضى أن يبدأ العام ، فى دار العلوم ، فى أول يناير ، وأن يكون الامتحان النهائى فى ديسمبر) .

وأنا أتطلع إلى أن أنعم بأستاذية الرجل الذى علمت عنه بعد يوم الامتحان أنه لا يمنح الدرجة العظمى إلا لنفسه ، ولكن كان قد نقل مفتشا بوزارة المعارف قبل يناير ١٩١٧ .

وفى الفترات التى كانت بين المحاضرات كنت أسمع قدامى الطلاب يتناشدون قصيدته التى كانت بعنوان : «الحب والحرب » ، والتى مطلعها :

مالى فتنت بلحظك الفتاك !
وسلوت كل مليحة إلاكِ !

وكنا نتبادل النصوص والمذكرات التى ندرسها بطبعها على ما كان معروفا، فى ذلك الوقت ، باسم مطبعة الغراء (البالوظة) ونسختى التى كانت من نصيبى من « الحب والحرب » لا تزال عندى بين أوراقى التى تسجل هذه المرحلة من حياتى .

وقبل أن أترك «مالى فتنت بلحظك الفتاك » أذكر أننى بعد تخرجى وعودتى من إنجلترا ، كنت أمتحن طلبة (البكالوريا) ، شهادة إتمام الدراسة الثانوية ، شفويا ، فى القراءة والنصوص الأدبية ، (كان النظام يقتضى أن الذين ينجحون فى الامتحان التحريرى ، يمتحنون شفويا قبل إعلان النتيجة النهائية) ، وسألت أحد الطلاب عما يحفظ من الشعر ، فانطلق مبتهجا : وقالت الآنسة أم كلثوم :

مالى فتنت بلحظك الفتاك !
وسلوت كل مليحة إلاكِ !

فقد كانت أم كلثوم قد غنت جزءا كبيرا من هذه القصيدة ، وكان صوتها يسمع من الأسطوانات التى سجلت عليه، من نوافذ البيوت في ليالي الصيف .

وقد لقيت الأستاذ الجارم ، بعد امتحانه لى بنحو عام ، فى حفل تأبين المرحوم الشيخ حمزة فتح الله ، أول من عين كبيرا (عميدا) للغة العربية فى وزارة المعارف ، كنت يوم هذا اللقاء طالبا فى دار العلوم ، وفى يوم التأبين اختاروا أوائل الفرق الدراسية ، فذهبت لحضور الحفل الذى أقيم فى القاعة الكبرى (بدرب الجماميز) ، وهى القاعة التى نشأت فيها (دار العلوم) ، يوم أسسها على مبارك باشا ، باختيار عدد من نوابغ طلاب الأزهر ، ليتلقوا العلوم العربية والشرعية والفنون الحديثة فى تلك القاعة . (ويحل محل المكان الآن المدرسة الخديوية بمبانيها التى فيما يسمى الآن (شارع بور سعيد) .

وفى ذلك الحفل برياسة عدلى يكن باشا ، وزير المعارف يومئذ ، وعلِية القوم من علماء وأدباء ، سمعت الجارم حين صعد إلى منصة الخطابة ، وبدأ يقول :

رُبَّ وَرْقاء هَتُوفٍ فى الضُّحى
ذات شَجْوٍ صَدَحتْ فى فَنَنِ

وبعد هذه القطعة القصيرة من الشعر المأثور ، أفاض بخطبته الفريدة ، البارعة النسج . وظل السؤال الطبيعى معلقا فى ذهنى نحو عشر سنوات : لماذا لم يقل الجارم يومئذ شعرا ؟ حتى أتيح

لى شرف الجلوس معه ومحادثته ، فسألته عن سر اتجاهه إلى النثر ، بدل الشعر ، فى تلك الحفلة الخالدة ، فقال : إنه كان يومئذ مفتشا ناشئا ، لم يمض عليه فى وظيفته إلا بضعة أشهر . ويبدو أن القائمين على إعداد برنامج الحفل الذى كان فيه كبار الشعراء ، وفى مقدمتهم حفنى بك ناصف ، لم يذكروه (الأستاذ الجارم) إلا فى الليلة السابقة ليوم الحفل. ولذلك – كما قال لى : خشيت أن أتعجل بقصيدة لا تضارع قصائد الحفل، فلجأت إلى لغة الخطابة ، وهى منشورة فى صفحات هذه المجموعة : رائعة من روائع الأدب العربى ، تجمع بين جهارة اللفظ العباسى ، ورقة العصر الحديث . وكان من حظى أن أدرس فى جامعة إنجليزية ، كان قد سبقنى إليها بأربعة عشر عاما . وكنت مولعا بالشعر الإنجليزى ، ألقيه فى حفلات الاتحاد الجامعية ، وندوات الأدب ، ولا أنسى وساما شفويا أهدته لى الأستاذة (وُوكَرْ) التى كانت فى الجامعة منذ أيام دراسة الجارم : لقد فاجأتنى ، على أثر إلقائى لإحدى قصائد الشاعر (ووردْزْ وِرْث) بقولها : أنت تُذكِّرنى بإلقاء الجارم .

ويشرف هذه المقدمة أن أذكر فيها علاقتى بدراسته لعلم النفس ، وهى مادة تخصصه الأولى ، كما كانت لى كذلك مادة تخصصى الأولى { قبل أن تحتوينى اللغة والأدب ، دون عقوق (للحبيب الأول) } . : لقد درست علم النفس ، طالبا فى دار العلوم فى أحد كتبه التى اشترك فيها مع زميله ، أستاذى العلامة مصطفى أمين ، وهو أول تأليف بالعربية فى علم النفس – وما سبق ذلك كان فى علم التربية – وكانت فصول هذا الكتاب « علم النفس » بينهما، كل فصل بقلم أحدهما ، بعد اشتراكهما فى تحديد المعلومات التى يعالجها الفصل . وكنت أنا وزميلى ، الذى كان يشاركنى فى معظم نشاطى العلمى (المرحوم عبد الجواد معوض زيدان) ، نقارن أسلوبين فى فصول هذا الكتاب : فكان بعض فصوله يتدفق أدبا

رفيعا يعبر عن حقائق علم النفس كأنها خطرات شاعر ، على حين كانت الفصول الأخرى تلتزم بدقة الأسلوب العلمى الذى يكاد يزن الحروف قبل الكلمات ، ويعطى الحقائق العلمية كأنها معادلات رياضية : كان صاحب الأسلوب الأول هو الشاعر الأديب ، الضليع فى علم النفس ، على الجارم ، وكان صاحب الأسلوب الثانى هو العالم الأستاذ فى مادته ، يعبر عنها فى أدق الصيغ ، لا بستهويه بيت شعر مثلا يكون معبرا عن المعنى الذى يكتب عنه ، كما فعل زميله الجارم عند ما كان يتكلم عن أثر الوحدة فى الشخصية فإذا ذاكرته تملى عليه قول الشاعر :

يا لَيْتنى وأنتِ ، يا لَمِيسُ
فى بلدٍ ليس به أنيسُ
إلا اليعَافيرُ وإلا العِيسُ

كان المرحوم مصطفى أمين يرى أن لليعافير والعيس مادة أخرى ، يتكلم عنها فى موضعها ، وقد عاش نموذجا للدقة البالغة .

وظهرت إحدى طبعات كتاب علم النفس ، وقد كتب على رأس كل فصل من فصوله ، فى الفهرس ، اسم كاتبه . وعند اطلاعنا على ذلك وجدنا أن ما قدرناه كان صوابا .

ولهما كتابان آخران هما : النحو الواضح ، والبلاغة الواضحة . وعندما أنظر فى هذه الكتابين ، أشعر بهذه الظاهرة متمثلة فى الشواهد والأمثلة التى توضح كل قاعدة نحوية أو بلاغية : فإذا هذه الأمثلة مزيج من حقائق الكون العلمية ، وروائع الأدب الباهرة . فيها تعانق العلم والأدب . وكما أن أثر الأدب والشاعرية قد جَمَّل العبارات العلمية فى أسلوب الجارم ، لاحظت أن تخصصه الأول ، وهو علم النفس ، لم ينعزل عن طبيعته الأدبية حين يكتب فى موضوع علمى أدبى : كما نرى فى أحد بحوثه المنشورة فى هذه المجموعة تحت عنوان «المعارضات الشعرية» ، فإنه يمهد لهذا البحث بدراسة سيكولوجية عن المنافسة التى هى منشأ الشعور بالرغبة فى المعارضات . يقول صاحب الفصل الذى كتب فى كتاب علم النفس عن «الغرائز» :

« غريزة المنافسة من أقوى الغرائز الحيوانية ، وهى فى الإنسان أبين منها فى الحيوان وأظهر أثرا ، لأن الإدراك يزيدها قوة ، ويستحثها إلى البروز والظهور . وإذا كانت فى الحيوان غريزة عمياء ، تصدر عن دافع آلى ، ولاتتجه إلى غاية ، ولا تعمل إلا عملا تسوقها إليه الفطرة من غير قصد ، فإنها في الإنسان غريزة مبصرة متعمدة ، تعرف ما تأتى وما تذر ، وترمى إلى هدف منصوب ، وتركض لتنال القصب فى ميدان سباق الحياة » .

« وتظهر المنافسة فى أنواع الحيوان المنحط الإدراك في التسابق إلى طلب الغذاء والاستئثار به ... هذا شئ مشاهد فى الحيوان لامرية فيه ولاشك ... أما غريزة المنافسة فى الإنسان فإنها تلازمه ملازمة الظل ...»

ويستمر عالم النفس الأديب إلى أن يصل إلى ربط غريزة المنافسة بغريزة المحاكاة ، وبغريزة الإحساس بالنقص ... حتى ينتقل إلى موضوعه الأدبى العلمى .

وليس هذا إلا مثالا واحدا مما نجده فى بحوثه التى يحتضنها علم النفس .

لقد سألنى أحد النقاد ، منذ سنوات عدة ، عن السبب فى أن خريجى دار العلوم الذين أتموا دراساتهم فى إنجلترا لم يظهر لهم نقد فى أحضان الدراسات النفسية ، وذكر أن أول ما صادفه فى هذا الميدان بحوث وكتب لى . فأجبته بما هو فى الحقيقة نتيجة ملاحظة لى : وهو أن الذين يتجه نقدهم إلى التحليل السيكولوجى – من هذا الرعيل الذى أشار إليه – هم الذين كانوا شعراء إلى جانب أنهم كانوا من علماء النفس ، وذكرت له أننى أعرف منهم ثلاثة تحقق ذلك فيهم : أولهم على الجارم ، وثانيهم محمد خلف الله أحمد ، « ولا تزكوا أنفسكم » .

وبعد فذكرياتى عن الأستاذ الرائد كثيرة ، وهذه ليست إلا طرائف من تراثه الذى جمعه ابنه البار ، الدكتور أحمد على الجارم ، الأستاذ بكلية الطب . بجامعة القاهرة .

وأخيرا فهناك عبارة كانت على لساني دائما ، كلما اجتمع رعيل الدَّرعميِّين ، وهي تلح على في الظهور الآن وأنا أذكرها – علَّى استحياء – لأنني كنت شديد الملاحظة لعشرات الأساتذة الأفاضل الذين أتموا دراساتهم العليا في إنجلترا حين ينطقون أو يتكلمون بالإنجليزية ، وكنت أقول (ومعذرة لهم جميعا) :لم أجد أحدا مازالت لغته الإنجليزية أسلوبا ، ونَبْرًا وتدفقا ، كأنه عاد من إنجلترا أمس سوى اثنين : هما على الجارم ، وعبد الحميد حسن . رحمهما الله ، وأعز بذكراهما عشرات ، بل مئات من تلاميذهم .

مهدى علام

نائب رئيس المجمع